دراسات فى الفن

شىء ليس فى الكتب ...

للأستاذ عزيز أحمد فهمى

... وقابلتنى مرة أخرى صديقتى التى قدمتها إليك فى الأسبوع الماضى وكانت كعادتها غاضبة ، ولكنها فى هذه المرة كان غضبها بالغاً نهايته من قبل أن تراني ، وقد رأتنى قبل أن أراها فلم أنتبه إليها إلا بعد أن وكزتنى وهى تقول :

— أهكذا يكتب الناس فى الصحف السيارة ما يدور بينهم وبين صديقاتهم من أحاديث ، حتى إذا قرأها من يعرفونهم ويعرفونهن وقفوا على ناحية من تفكير فتاة تحب أن يعرف الناس عنها أنها مقطوعة الصلة بالرجال وأحوال الرجال ونفوس الرجال ؟ ... أم أنت آليت على نفسك تخويف المرسان ؟ حقاً إنك قليل الذوق !

— عفوك يا آنستى عفوك ، فما أقصد إلى شىء من هذا ، وإنما أدعو الله لك بالتيسير كما أسأله لك الصون . ثم أنتهزها فرصة لأسألك ما هو الذوق ؟ هذا الذى تقولين إن نصيبى منه قليل ...

— هو فضيحة جديدة تزفها بأجراسها للرسالة . سأشكوك للأستاذ الزيات !

— ليس للأستاذ الزيات شأن فى هذا . فأجيبى وقولى : ما هو الذوق ؟ أم أنت تقولين ما لا تعرفين ؟

— لا أعرف هه ! فما هو الذوق يا ذواق ؟ ...

— وأنا أيضاً لا أعرف

— إذن ففيم كانت هذه الأستاذية المنفوخة فى سؤالك ؟

— كانت فى السؤال يا آنستى ... أما تعرفين أنى أستاذ فى الجهل ، والسؤال سألته بحثاً عن المعرفة؟ وهلا تحبين أن نتعرف الذوق معاً ؟

— أتعرّف الذوق معك أنت ؟ وهل أنت تريد أن تعرف الذوق ... ؟

— بنعمة الله أردت . وإنى أراك لا تعرفينه فقد وقفت عن تعريفه ، فلم لا نتعرفه معاً ... إنه شىء ليس فى الكتب !

— لولا أنك مر !

— يا توفيق الله ! من هنا نبدأ . أنت تصفين إنساناً بأنه مُر ، بينما الإنسان شىء لا يؤكل ولا يشرب حتى يعرف له طعم فكيف سولت لك نفسك هذا الخلط ؟

— وأنا مالى ! أتريد أن تحاسبنى على اللغة أيضاً ؟ هم الناس يقولون هذا عند ما يريدون أن يصفوا إنساناً بأنه ... بأنه مر !

— إذن فأنت مقلدة فى هذا ... وسنفرض أيضاً أن كل من يصف الإنسان بالمرارة مقلد فى وصفه ... ولنمض إلى أن نلتقى بأول من وصف إنساناً بهذا الوصف ... ولنسأله : كيف سولت له نفسه هذا الخلط ؟

— سيقول إنه تشبيه

— ونحن أيضاً نقول إنه تشبيه ... ولكن كيف نشأ هذا التشبيه فى ذهنه ، وكيف قامت عنده هذه العلاقة بين الإنسان وبين المرارة وهى طعم من الطعوم لا يمكن أن يصل إلى الذهن إلا فى أعصاب الجهاز الهضمى ؟

— ما للجهاز الهضمى وما نحن فيه ؟

— ليس للمرارة مدخل إلى الإنسان إلا من هذا الطريق ... من الجهاز الهضمى وحده فلن نعدل فى تفهم الذوق عن هذا .. وسنبدأ بتقدير حقيقتنا الأولى ، وهى أن أول من وصف إنساناً بأنه مر لا بد أن تكون أعصاب جهازه الهضمى قد أحست المرارة

منه فعلاً ... وعلى هذا القياس يكون أول من وصف إنساناً بأنه حلو قد أحست أعصاب جهازه الهضمى فيه بطعم السكر فعلاً .. وهكذا ...

— إذا وجدت إنساناً معك يوافقك على هذا الكلام ، فإنى أعاهدك أن أقوم لك مدى الحياة خادمة ، وعلىّ دخانك ! إن هذا الذى تقول لا يصح إلا عند نيام نيام حيث يأكل الناس بعضهم بعضاً فيتذوق بعضهم مرارة ذبيحته أو حلاوتها !

— وأنت لا يصح الذى تقولين ، إلا إذا كان عقل الإنسان آلة مضطربة لا نظام لها ولا قانون، ولكن للعقل نظاماً وقانوناً، أفإذا قال هذا علماء النفس آمنت ، فإذا قلته أنا تستهزئين ؟

— لأنك تريد أن تخرج منه إلى نتيجة مضحكة !

— ليس ذنبى ، ولا ذنب ما أقوله أنك تضحكين ، أسكتى ، ولنمض ... والله المعين .

— أنا معك ... فماذا تريد أن تقول ؟

— أريد أن أعود فأصلح ما قلت لأنه كلام سخيف

— ليتك تريد أن تعرض نفسك على طبيب حكيم . أما قلت لك إن الذى تقوله ليس شيئاً غير كلام المجانين ...

— لا يا آنستى، إنه كلام معقول معقول، وكل ما فى الأمر أنه سخيف ، فلو أننا برأناه من السخف لصلح . ومن يدرى فربما أصبح حقيقة علمية فيما بعد . اسمعى

— ها أنا ذى سامعة . وإنى لا أسألك يا رب رد القضاء وإنما أسألك اللطف فيه

— المعروف أن الجهاز الهضمى لا يرسل إلى المخ إشاراته إلا بعد أن تؤثر فيه مؤثرات كيميائية ... أليس كذلك ؟

— إنه كذلك

— ونحن نريد الآن أن نعرف : ألا يمكن أن يرسل الجهاز الهضمى إلى المخ إشاراته هذه بغير وجود هذه المؤثرات الكيميائية؟

— يمكن هذا ... عند ما يتذكر الإنسان طعما من الطعوم

— ليس هذا التذكر إلا استعادة داخلية تلقائية تحدث فى المخ وتسترجع بها صورة لحالة فاتت ... فهو من نوعها ... ولكنه على أى حال يفيدنا دليلاً أو قرينة على أنه من الممكن أن يتصور الذهن أو أن يدرك طعماً من الطعوم بدون حاجة إلى المؤثر الكيميائى

— حسن . وهل تحسب أن هناك مؤثراً آخر غير هذا المؤثر الكيميائى ؟

— ولم لا ؟ ألا يمكن أن يكون هناك مؤثر كهربائى مثلاً ؟

— تريد أن تقول إننا عند ما نرى إنساناً ممن نصفهم بالحلاوة مثلاً ، يجرى منه تيار كهربائى فيدخل هذا التيار إلى أفواهنا أولاً ، ثم تمضغه أسناننا ، وتلوكه ألسنتنا ، ثم ينزلق فى المرىء إلى المعدة، وفى أثناء هذا ترسل أعصاب الجهاز الهضمى إشارات إلى المخ تدل على أن هذا الإنسان حلو ؟!..

— لست أريد أن أقول هذا بالضبط ، وإنما أريد أن أقول شيئاً يشبهه . على أنى لا أرى ما يمنع من إقرار هذا الذى تقولين ، وتعزوه عندى مشاهدات فطرية ليس من الحكمة أن ننكرها أو أن نغفلها

— وما هى مشاهداتك هذه ؟

— سأذكرها لك ، ولكنى أرجوك ألا تشمئزى منها فالحق لا يعرف الاشمئزاز ولا التقزز ... لا تؤاخذينى ... ألم تبصق يوماً على إنسان رذل ؟ أو فى موقف رذل ؟ ثم ... ألم يسل لعابك يوماً استجابة لحلاوة ... طفل أو طفلة... أو موقف حلو؟!.. أجيبى...

— ما هذا « الفرف » ؟

— عدنا إلى تردد النساء ووجومهن عن الحق ؟ أجيبى ... ألم يحدث لك شىء من هذا ؟ أما أنا فقد حدث لى كثيراً، كما أنى أعرف أناساً كثيرين حدث لهم مثل هذا ، وإنى أعفيك من الإجابة عن هذا السؤال وأفرض أنك مخلوقة عجيبة لا تخضعين للقوانين التى تسرى على غيرك من الأبشار ... وأسألك لماذا يحدث للناس ما عداك طبعاً ... هذا الذى ذكرناه ؟ .. هل هو تأثير كيميائى أيضاً ؟

— لا أظن !

— إذن فهو غير التأثير الكيميائى ، وأنا أقول إنه تأثير كهربائى . صحيح أننى لا أستطيع أن أثبت هذا إثباتاً علمياً يقوم على أساس من التجربة الدقيقة ... ولكن ...

— ولكن هذا الكلام لا يمكن أن تقوم له قائمة إلا إذا أثبته

— وأنا لا يعنينى كثيراً ولا قليلاً أن تقوم له قائمة ، فلا أنا متعلق به ولا أنا حريص عليه ... بل إنى أحب أن أمحوه

لأثبت مكانه شيئاً آخر أحبه أكثر مما أحب الكهرباء، وهو الروح

— ولماذا لا تقصد إلى ذلك رأساً ما دام هذا هو غرضك ؟

— لأن الحديث عن الكهرباء في هذا الزمن أيسر قبولاً عند الناس من الحديث عن الروح، وقد يجد من يقتنع به في سهولة بل إنه قد يجد من يحاول إثباته ... وربما وجد من يثبته

— فأنت تخادع محادثك وتتملقه

— بل إني أستدرجه ... دعيني من هذا، وعودي بنا إلى ما كنا فيه ...

— وفي أي شيء كنا ؟

— كنا نتحدث في « كهربات » الناس

— يالله من موضوع !

— إنه لا يزال أشتات موضوع ولما يتجمع ... والآن تريد أن نعرف ... ألا تختلف الكهرباء في المعادن والعناصر ؟

— إنها تختلف ... فنحن إذا دلكنا الكهرمان بالصوف أو الحرير انبعثت منه الكهرباء، ولكنها لا تنبعث منه إذا دلكناه بالقطن مثلاً ...

— حسن . إن في هذا ما يشبه ذلك السر الذي يوفق بين ناس وناس، وينفر ناساً من ناس . وقد يكون في هذا أيضاً سر الإذن الذي أباح به الإسلام للرجل أن يتزوج من أربع نساء

— إن هذه قفزة عجيبة أريد لها توضيحاً ...

— ألا تستطيعين أنت أن تذهبي وحدك إلى هذا التوضيح ؟ الرجل كالكهرمان، والنساء كالصوف والقطن، ولكنهن أربع والصوف والقطن اثنان

— ولكن النبي محمداً تزوج أكثر من أربع ...

— إنه النبي محمد الذي كانت كل كلمة من كلماته درساً، والذي كان كل عمل من أعماله حكمة ... وهو قد أحب خديجة حبا، وأحب عائشة حبا، وأحب زينب بنت جحش حبا، وهكذا...

— ألا ترى أننا ابتعدنا عما كنا فيه ... عد بنا إلى الكهرباء

— لا أريد أن أقول شيئاً بعد هذا ... إلا أنه قد أصبح من السهل على هذا الأساس الذي وضعناه أن ندرك السبب في اتفاق مشارب الناس وفي اختلافها . والاتفاق هو الذي يحشد بعض الجماهير وراء بعض الفنانين إذ تجد الجماهير في الفنان قائداً يقودها إلى ما تحبه وتتاح إلى الاحساس به، وينأى بها عما تكرهه وتتقزز من الإحساس به. وهذا هو ما يسمونه الذوق؟

— ولكن علماء النفس أدركوا هذا السر قبل أن تدركه أنت، وقالوا إن الناس أمزجة، وقسموا أمزجة الناس إلى أربعة : اللمفاوي، والسوداوي، والدموي، والصفراوي . وأرجعوا نشأة هذه الأمزجة إلى إفرازات تفرزها غدد خاصة في الأجسام . ولقد أعانهم علماء الطب والتشريح على مذهبهم هذا فأثبتوه لهم، وأنت تلقي كلاماً على عواهنه وتريد مني أن أصدقك وأن أعرض عن كلامهم من غير برهان تسوقه ؟

— لا يا آنستي . . . أنا لم أطالبك بشيء من هذا . ولكني أذكرك بما يكون قد غاب عن ذاكرتك، وهو أن الفلاسفة الأقدمين قد قسموا أمزجة الناس إلى طبائع أربع أيضاً فقالوا إن من الناس من هو ترابي، وإن منهم الهوائي، وإن منهم المائي، وإن منهم الناري . . . وقد اندثر تقسيم الفلاسفة القدماء ولم يعد أحد يأخذ به وحل محله كلام أطبائك وعلماء نفسك !

— ولعلك تريد أن تقول إن مذهب حضرتك هذا هو الذي سيحل محل مذهب الأطباء وعلماء النفس ؟

— العفو ! ولكني أعود إلى السؤال الأول الذي بدأنا به هذا الحديث والذي جرنا إلى هذه النهاية المربكة ... كيف وصف الواصف الأول إنساناً بأنه حلو أو أنه مر وبينما هو لم يذق له طعماً ؟

— إنه تشبيه

— بهذا أجبت في بادئ الأمر . فهل تريدين أن ندور ؟ . . .

عزيز أحمد فهمي

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بالأثمان الآتية :

السنة الأولى في مجلد واحد ٥٠ قرشا، و ٧٠ قرشا كل من السنوات : الثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة في مجلدين . والمجلد الأول من السنة السابعة

وذلك هذا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش في الداخل وعشرة قروش في السودان وعشرون قرشا في الخارج عن كل مجلد

معهد التناسليات تأسيس الدكتور ماجنوس لتبرشفلد فرع القاهرة بعمارة بدوية رقم ٤٦ شارع المرايع تليفون ٥٢٥٧٨ يعالج جميع اضطرابات وأمراض العقم والشذوذ التناسلية والضعف عند الرجال والنساء وتجديد الشباب والتخزيق الميكرة - ويعالج بصفة خاصة : زيادة الحاسة طبقاً لأحدث الطرق العلمية والعيادة من ١٠-١٢ ومن ٤-٦ . ملاحظة : يمكن إعطاء نصائح بالرسائل للتعريف بمعهد أعمال الفائدة بعد أن يجيب على مجموعة الأسئلة البسيكولوجية المعروفة على ١٥ سؤالاً التي يمكن الحصول عليها نظير ٥ قروش